بَلَاغَةُ لُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ
فِي سُورَةِ الضُّحَى

م. د. علي عباس سلمان الربيعي

فحوى البحث

تجسدت جمالية الخطاب اللغوي والبلاغي في سورة (والضحى) في قوة الرد على ادعاءات قريش وتفنيد ما ذهبوا اليه من أن الله سبحانه قد قلى رسوله محمداﷺ بل أثبت العكس من خلال لوحتين بلاغيتين، احداهما: في بلاغة القسم وجوابه في مفتتح السورة، والاخرى: في بلاغة الاستفهام. فضلا عن تضافر اساليب لغوية اخرى تناسقت في اللوحتين فأنتجت نسقا لغويا غاية في الفصاحة والبلاغة اتضحت من خلاله رعاية الله سبحانه لرسوله الكريم –صلواته عليه –مذ ولادته ومن ثم اصطفائه وتفضيله على الخلق اجمعين في الدنيا والاخرة .وجاء ذلك با سلوب القسم (والضحى)، كما تضمنت السورة توجيهات تربوية للرسول صلوات الله وسلامه عليه في أن يراعي كل انسان مراعاة الله له بغض النظر عن جنسه او لونه او عقيدته.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــــد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله الطيبين وصحبه المنتجبين.

وبعد:-

فإن كتــاب الله العزيز منذ أن أنزل على نبينا محمدﷺ وهو موضوع العناية من قبــل هذه الأمة حفظا وتلاوة وفهما ودرسا.

وكـان هذا الـدرس على وفق مناهج مختلفة؛ منهج العقيدة والتشريع، ومنهج الآداب والمعـاملات ومنهج الـدراسة اللغوية والفنية وغير ذلك.

ونظرا لمجـــال التخصص فقد اختير منهـج الدراسة اللغوية، وهو أيضا منهج شامل يتناول فروعا مختلفة من اللغـــة العربية وبخاصة ما كان منها يُحتاج إليه في المعاملات المتداولة قضاءً لحاجات الناس أو ما كان منها في مجال البحث والدرس مما يحتاج إليه طلاب العلم وهذه مرحلة متقدمة على الاولى.

واتـبـاع هـذا المنهج يتطلب بحثا متواصلا وجهدا مضنيا إيمانا بأهمية هذا المنهج اولا، ثم إن تحقيقه يحتم البحث الشامل في فـروع اللغة المختلفة وفـاءً بالواجب العلمي؛ فهو يقتضي البحث عن قواعد النحو وأصوله، وتطبيقها على الموضوع المدروسة وعن الصرف، ودرس ما يلزم منه، وما تقضي الحاجة بالتصرف عليه وعن فقه اللغة فيما يتعلق بالمعاني الدقيقة لبعض الكلمات والبحث كذلك في المعاجم التي جمعت هذه المادة اللغوية وحددت معانيها.

ثم البحث عن الجانب الفني والجمالي وذلك بتطبيق الصور البلاغية المختلفة على النص المدروس وتلمسها في ألفاظه وعباراته، وهذا هو المفصل الأهم الذي يتضمنه.

لـذلـك وقـع الاخـتـيـار عـلى سـورة الضحى لتكون موضوعا لهذه الدراسة فقد رأى الباحث إن أفضل نص يمكن أن نلتمس فيه هذه الجوانب هو كتاب الله العزيز كونـــــه مثلا لأعلى طبقات الفصاحة والبلاغـــة، والله ولي التوفيق ومنه العون.

التمهيد:

سورة والضحى، لمحة تعريفية

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾

سورة والضحى مكية، من المفصل، آياتها احدى عشرة آية وترتيبها في تسلسل السور في المصحف الثالثة والتسعون، ونزلت بعد سورة الفجر، وهي في الجزء (٣٠)، الحزب (٦٠)، الربع (٦).

الضحى ضوء النهـــار حين تشرق الشمس، وهي مؤنثة، وَتَصْغِيرُهُ ضُحَيًّا، فَإِذَا فَتَحْت مَدَدْت، قَالَ الشَّاعِرُ:

أُعَجِّلُهَا أَقْدُحِي الضَّحَاءَ ضُحًى

وَهِيَ تُنَاصِي ذَوَائِبَ السَّلْمِ

يَصِفُ أَنَّـهُ نَـامَ عَـنْ إبِـلٍ، فَأَخَذَهَا ضُحًى قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الضَّحَاءُ. وَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الضَّحَاءَ بَعْدَ الضُّحَى، حَقٌّ إنَّهُ لِيَتَمَادَى إلَى نِصْفِ النَّهَارِ، فَفِي الْحَدِيثِ: ((إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حِينَ هَاجَرَ، وَقَدْ اشْتَدَّ الضَّحَاءُ، وَكَادَتْ الشَّمْسُ تَزُولُ))[1].

محور مواضيع السورة:

تتحدث السورة عن النعم والافضال التي حباهـــا الله رسوله الكريم، لتكون مدعاة ليشكر ربه على تلك النعم، وبما أن النبي قد أدّبه ربه فأحسن تأديبه لذلك لا بد من صرف الخطاب إلى عامة المسلمين في التفاتة قرآنية بليغة تكررت في أكثر من موضع.

سبب نزول السورة:

روى الامام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رُمِيَ بِالْحَجَرِ فِي إصْبَعِهِ فَدَمِيَتْ؛ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: هَلْ أَنْتِ إلَّا إصْبَعٌ دَمِيَتْ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيت، فلم يقم لليلة أو لليلتين، فأتت

(١) ينظر، أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣ م: ٤/ ٤٠٨.

امرأة فقالت له: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، ويبدو إن النبي قد تأثر من كلامها هذا، فأنزل الله عز وجل سورة (الضحى) لكي يطيب خاطره، وفي رواية أن تلك المرأة كانت ((العوراء بنت حرب)) إحدى زوجات أبي لهب، وهي حمالة الحطب ذاتها[٢].

أحكامها:

تضمنت السورة عددا من الاحكام الشرعية، فقد ذكر الجصاص إن ((قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، قِيلَ لَا تَقْهَرْهُ بِظُلْمِهِ وَأَخْذِ مَالِهِ وَخَصَّ الْيَتِيمَ لِأَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللهَّ فَغَلَّظَ فِي أَمْرِهِ لِتَغْلِيظِ الْعُقُوبَةِ عَلَى ظَالِمِهِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: اتَّقُوا ظُلْمَ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللهَّ، وقَوْله تَعَالَى وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ إغْلَاظِ الْقَوْلِ لَهُ لِأَنَّ الِانْتِهَارَ هُوَ الزَّجْرُ وَإِغْلَاظُ الْقَوْلِ، وَقَدْ أَمَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِحُسْنِ الْقَوْلِ لَهُ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ قَدْ أُرِيدَ بِهِ جَمِيعُ المكلفين))[٣].

وللشيخ الشعراوي رأي واعجاب شديد في هذه السورة، فقد نظمت وفيها قسمٌ وتسع آياتٍ، القسم هو: والضحى والليل إذا سجى، وجوابه: ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى... فأتي لهم على كل قضية بدليل: ما ودعك ربك وما قلى، تستدعي: ألم يجدك يتيماً فآوى، وهذه مؤكدة لها، وقوله: ووجدك ضالاً فهدى، أدى إلى، وللآخرة خير لك من الأولى؛ لأن الهداية خير، أما: ولسوف يعطيك ربك فترضى، فالمقابل لها: ووجدك عائلاً فأغنى، ما دمت أنت ما ودعك ربك وما قلاك، والدليل على ذلك أنك كنت يتيماً فآواك: فأما اليتيم فلا تقهر، أم قوله: ووجدك ضالاً فهدى، فما دام قد هدى فقد تعين مجيء، وأما السائل فلا تنهر، وقوله تعالى: ووجدك عائلاً فأغنى، فيقابل قوله

(٢) ينظر، م. ن: ٤٠٨.

(٣) أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ: ٥/ ٣٧٢.

تعالى: وأما بنعمة ربك فحدّث[٤].

وقد جاء أنه لما قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾، ثم اتبعه بقوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ ﴾، وبقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾، فلزم الخوف، واشتد الفزع وتعين على الموحد الإذعان بالتسليم والتضرع في التخلص والتجائه إلى السميع العليم، آنس تعالى أحب عباده إليه وأعظم منزلة لديه، وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له، فقال: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، ثم عدد تعالى عليه نعمه بعد وعده الكريم له بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾.

وأعقب ذلك بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ فقد آويتك قبل تعرضك وأعطيتك قبل سؤالك، فلا تقابله بقهر من تعرض وقهر من سأل وقد حاشاه سبحانه عما نهاه عنه، ولكنه تذكير بالنعم، وليستوضح الطريق من وفق من أمته ﷺ[٥].

المبحث الاول:

بلاغة القسم وجوابه في مفتتح السور:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾

يقال: جئتــه ضحوة وضحًى وضحاء وضحياً، وضاحيته: أتيته ضحوة، نحو: غاديته وراوحته. وضــاحاني رسولك، وضحينا بني فلان، نحو: صبحناهـــم، وضحّى قومه: غداهم فتضحوا، ودعاهم إلى ضحائه. وضحى إبله: رعاها ضحاء. ورأيت ناقتكم تتضحّى بأسفل الجبل. وضح غنم فلان، ويقال: ضحّيت الإبل عن الورد وعشيتها عنه أي رعيتها الضحاء والعشاء حتى ترد وقد شبعت. وضحيت للشمس وضحيت. وأنا أضحي كل نهـــار. واضحَ يا رجل. ونزلوا بضاحية

(٤) ينظر، مظاهر أسلوبية في إجراءات تفسير سورة الضحى، عامر مهدي صالح، مجلة ديالى، العدد٤٣، ٢٠١٠م، ص٤٣٧.

(٥) البرهان فى تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (ت: ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المغرب، ١٩٩٠: ١/ ٣٦٥.

البلد وضواحيه: بظاهره. وهم ينزلون الضواحي. وهو من قريش البطاح، لا من قريش الضواحي. وبدا ضاحي رأسه وضواحي رأسه. وفعل ذلك ضاحية: علانية.

وفي الدعاء: لا أضحى الله تعالى لنا ظلك[٦].

افتُتِحت السورة بالقسم على اسلوب الخطاب وطريقته في المكي من القرآن، فالواو واو القسم حرف جرّ، والضحى مجرور بها وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف لتعذر ظهورها عليه، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف يدلّ عليه سياق الكلام، والليل معطوف على الضحى، أما الواو قبل (التين) فهي للعطف وليست لقسم جديد وإلا لاحتاج كلّ منهما إلى جواب مثل: (والتين والزيتون)[٧].

(٦) أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٩٩٨: ١/ ٥٧٦.

(٧) انظر المغني: ٢/ ٣٦١.

و(إذا) لمجرد الظرفية أي الظرفية المجردة عن الشرط، والعامل فيه فعل القسم المقدر في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ الآية، وما عطف عليه جواب القسم فأجيب القسم بمنفيين وهما معا: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ومثبتين، هما: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ الآيات.

أما اللام في قوله: (وللآخرة) فهي لام الابتداء مؤكدة لمضمون الجملة، داخله على المبتدأ، و (خير) خبره وما بعده في الجار والمجرور متعلق بالخبر، والمراد بالضحى وقته وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس، ومعنى: (سجا): سكن وركد ظلامه، وقيل: سكن الناس فيه، ومعنى: (ودّعك)، بالتشديد، ما قطعك.

وتُقرأ بالتخفيف، لتكون بمعنى: تركتك: وعليه قول الشاعر:

وثم ودعنا آل عمرو وعامر

فرائس أطراف المشقفة السّمر[٨]

ومثله قول أبي الاسود:

ليت شعري عن خليلي ما الذي

(٨) الكشاف: ٤/ ٢٦٣.

غاله في الحبّ حتى ودعــــه[٩]

وبذلك يرد على النحاة الذين يقولون إن العرب أماتت ماضي: يدع ويذر، وإن كانت قراءة التخفيف شاذة، كما قيل، فإنها وردت عن العرب.

يضاف إلى ذلك قول أفصح العرب عليه الصلاة والسلام: لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات ... الخ.

(وما قلى): ما أبغضك، وقال الراغب: القلى شدة البغض[١٠]، وحذفت الكاف في (قلى): لدلالة ما قبلها عليها في قوله (ما ودعك) ولظهور المحذوف أيضا، وقيل إن المراد بذلك نفي صدور الفعل أصلا عن الله وهو أبلغ في نفي البغض على أنه لا يمنع أن يكون في الحذف مراعاة الفاصلة القرآنية.

ولظهـــور المحذوف ودليل الحذف ورعاية الفاصلة كان حذفه في: (فآوى)، و(فهدى)، و(فأغنى)، وهو حدُّ قوله تعـالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾[سـورة الاحـزاب: ٣٥]، أي والذاكراته، لأن (الذاكرين والذاكرات) اسم فاعل يعمل عمل فعله في نصب المفعول وقد توفر شرط العمل فيه هنا.

ويرى الدكتور نعيم اليافي أن الأمـر في هذه الآية ((يتعلق بالتجربة الشعورية وليس بالتعبير الجمالي فحسب، نشـرح ذلك فنقول: في ضوء لمسة الحنان لإطار النص النفسي كله لا يمكن للقرآن أن ينسب البعض إلى الله، ولا يمكن أن يقطع الصلة بين محمد وربه، فلو قال: لَقَلاك؛ فمعنى ذلك أن ثمة صلة مقطوعة بين الكاف والفعل وأن التواجه موجود بين محمد وربه، بحذف الكاف أي بحذف المفعول به انتفى الانقطاع وبقيت الصلة دائمة بين محمد عليه الصلاة والسلام والإله. وهذه الصورة الشعورية إنما هي عكس الواقع النفسي الذي كان يحياه الرسول ونفي لإمكان التباعد بين الرب والعبد، بل تحقيق للصلة الدائمة بينهما، فإذا ما أضفنا إلى ذلك الناحية الشكلية.. الإيقاعية.. الجمالية في تناسب رؤوس الآي أدركنا مبلغ الإعجاز في هذا الذكر

(٩) الشهاب: ٨/ ٣٧١.
(١٠) المفردات: ٥١٧.

والحذف معا؛ الذكر في: ودَّعك، والحذف في: قَلَى، وسيتضح الأمر أكثر حين نشرح معاني المفردات بعدها))[11].

واللام في: (ولسوف) لام الابتداء دخلت على مبتدأ محذوف تقديره: لأنت وما بعده خبر المبتدأ، وليست لام قسم لأن هذه لا تدخل إلا على الفعل المضارع المؤكد بنون التوكيد الثقيلة أو الخفيفة.

يعدُّ البلاغيون القَسَم من مؤكدات الكلام إذا كان المقام يقتضي التأكيد سواء كان في مقام الرد على المخاطب -وهو المشهور المتداول -أو كان المقام في حدّ ذاته يقتضي تأكيد الكلام مثل ما إذا أراد المتكلم أن يأتي بحجة قوية وكلام مؤكد لا يحتمل التشكيك ويكون بالقوة المناسبة للمقام وهو ما يعبر عنه بحال المتكلم.

وبالنسبة لافتتاح سورة (والضحى) بهذا القسم فإنه كما قيل في سبب النزول: إن الوحي تأخر عن رسول الله فترة من الزمن، فقال المشركون: إن محمدا قد ودّعهُ ربّهُ وقلاه، فنزلت السورةُ ردّا عليهم بهذا الكلام المؤكد، وطمأنةً لنفس الرسول عليه الصلاة والسلام، وبذلك فإن المقام يقتضي هذا التأكيد، وقد كان على مستوى دعوى قريش في القوة حيث أكد بالقسم وأكد جواب القسم كذلك.

وقد كان القسم (بالضحى) دون غيره لفضيلة هذا الوقت، حيث كلّم الله فيه موسى ونصره على السَحَرة فألقى السحرة سجدا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [سورة طه: ٥٩].

وفضلا على ما ذكر فإن وقت الضحى وقت سرور وبداية يوم جديد، ثم أنه يعقب ظلاما ساكنا هدأت فيه الحركة، وقد يوحي القسم بهذا الوقت بالخصوص بأن نصر الله رسوله، ورعايته له أمر لا يختلف عليه اثنان ولا ينكره إلا من ينكر هذه الحجة الواضحة التي تعارف الناس عليها وعلى فضلها.

أما إذا كان المراد بالضحى: النهار كلّه، كما قيل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا

(١١) نظرة بلاغية في سورة الضحى للأستاذ الراحل الدكتور نعيم اليافي، ملتقى أهل التفسير، الانترنيت.

وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ٩٧ -٩٨] بجعله في مقابلة الليل كان ذلك على طريق المجاز اللغوي المرسل، حيث أُطلق الجزءُ وأُريد الكلّ، وذلك بالقسم بالضحى والمراد النهار كله وتكون في الكلام، وذلك بالقسم بالضحى والمراد النهار كله، وتكون في الكلام حينئذ مقابلة الليل بالنهار -وهو محسِّن بلاغي بديعي.

وقوله تعالى: ﴿ سَجَىٰ ﴾ فعل ماض، وقد استتر فاعله لأنه يعود على الليل، وهو بمعنى ركد، فإذا كان المراد بالسكون، سكون الناس فيه، فإنه يكون من باب الحقيقة وليس المجاز، فهو على حذف مضاف لأن السكون ضد الحركة يقوم بمن تتأتى منه الحركة، ويصح أن يكون مجازا أو مرسلا على حدّ قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[سورة يوسف: ٨٢] وحيث كان السؤال لا يتوجه إلى المكان في قوله هنا، وهو القرية، لعدم إمكان ذلك فيه وجب حينئذ أن يتوجه إلى أهلها الحالّين بها، وكذلك الشأن هناك -أي في سورة الضحى -إذ لا يمكن نسبة السكون الذي هو ضد الحركة إلى الزمان فوجب أن يكون ذلك من أهله فتكون العلاقة الحالية في الزمان مثل ما كانت في المجاز السابق في المكان فالعلاقة حالية محلية إلا أنها في الاول أفادت حلولا مكانيا وفي الثاني أفادت حلولا زمانيا.

أما إذا كان السكون منسوبا ومسندا إلى الليل بإسناده إلى ضميره من غير اعتبار الإضافة إلى الناس أو الأهل فإنه يكون من باب المجاز العقلي حيث اسند الفعل إلى غير ما هو له، وأدرك هذا الاسناد عن طريق العقل ولذلك سمي مجازا عقليا.

وهذا أبلغ في الدلالة على السكون لأن الشيء إذا جاء في غير موضعه كان مجيئه في مظانه أولى، وبذلك كان المجاز -سواء أكان لغويا أم عقليا -أبلغ في الحقيقة.

واستعمال (سجى) بمعنى ركد في شدة ظلام الليل استعارة تبعية حيث يكون جريانها في الفعل تبعا للمصدر، إذ إن دلالة ركد اشتد ظلامه بمضي وقت من الليل، والركود في حقيقته اللغوية عدم جريان الماء.

أمـــا إذا أُريد تشبيه الليل الشديد الظلمة بالماء الراكد فإن ذلك يكون على طريق الاستعارة المكنية وهي التي يكنى فيها المشبه به ويُخفي ويُرمز إليه بشيء من لوازمه وخصائصه مسنداً ذلك الشيء إلى المشبه واللازم هنا: الركود الذي نسب الى الليل.

ونجـــد الاستعارة -أيضا -في قوله تعالى: ﴿ مَاوَدَّعَكَ ﴾، فهنا مجاز لغوي على طريق الاستعارة، فالتوديع إنما يكون بين الاحباب، وعليه فإن حقيقته اللغوية لا تتأتى هنا، لذلك لا بد أن يصرف قوله هنا على سبيل الاستعـــارة التبعية حيث استعير التوديع للترك، ثم اشتقت منه: ودّع بمعنى: ترك منفيا فيهما، ويجري ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَمَاقَلَى ﴾ ما جرى في قوله: (ما ودعـك)، ويمكن عدّهما كذلك كناية عن رعاية الله لرسله وأنبيائه، وبخاصة خاتمهم، وهو سيدنا محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وَوُصِلتْ الجملة الثانية: (وما قلى) بالأولى -أي عطفـــت عليها -للتناسب بينهما المقتضي للوصول حيث كان كل منهما خبرا منفيا.

أما كيف عطفت جملة: (ولَلآخرة خيرٌ) الآيـة وجملة (ولسوف يعطيك) الآيـة، واتصلتا بما قبلهما فإنه لما كان المعنى في ضمن نفي التوديع والقلى، أن الله مقربك ومنعم عليك بالوحي، وهو من أجلّ النعم واعظمها على رسول الله في هذه الدنيا أخبره بأن مقامه أعظم في الآخرة، ودرجته أعلى وذلك أنكى في الرد على المشركين الذين حسدوه على نعمة الرسالة والوحي، ولعل جزالة العطاء وزيادة التأكيد توضحهما الآية: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾، وبـذلـك كـان العطف مناسبا حيث عطفت الجملتان المثبتتان على معنى المنفيتين.

على إنه يجوز أن يكون المراد بالآخرة آخر الدعوة الاسلامية بالنسبة لبدايتها وذلك إيحاء للرسول ووعد له بالنصرة، وانتشار دعـوتـه، وغلبته عـلى الاعـداء المعارضين، وذلـك ما يشعر به كذلك القصر في قوله (لك) والتأكيد واضح من دخول لام الابتداء على كلتا الجملتين لأن لام الابتداء تؤكد مضمون الجملة، ثم من

اسلوب القصر في: (لك) كما قلنا.

وجزالة العطاء يدل عليها حذف المفعول الثاني لـ (يعطيك) الآن حذف المفعول يدل على العموم فهو صادق بكل عطاء، ومفعوله الأول حرف الكاف، وتقدير المفعول الثاني بمعنى: ما تريد، فيكون الكلام: ولسوف يعطيك ربك ما تريد فترضى[١٢]، وهو من الأفعال التي يجوز فيها الاقتصار على أحد المفعولين دون الآخر، وقد تحقق بعض هذا الإعطاء في مظاهر كثيرة منها: النصر في بدر، ومنها الفتح الأعظم لمكة المكرمة، وأكبرها انتشار الدعوة الاسلامية على وجه البسيطة وفتح خيرات الدنيا على المسلمين، وبعضه سيتم في موعده مثل: الشفاعة العظمى له عليه الصلاة والسلام فيمن يستحق هذه الشفاعة الدال عليها قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[سورة محمد: ١٩].

قال الخازن: والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معاً، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير لك من خيري الدنيا والآخرة.. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل، ذكَّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي ألم تكنْ يا محمد يتيماً في صغرك، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمَّك إليه[١٣].

(واللام) الداخلة على سوف، والتي مرّ على إنها لام ابتداء فهي تؤكد مضمون الجملة، لكن يبدو في الظاهر إن هناك تناقضا بين مدلولها ومدلول (سوف) فهي تؤكد مضمون الجملة أما (سوف) فإنها تدل على حدوث الفعل في وقت ليس بالقريب والتأكيد يقتضي حصول الفعل، وهذا لم يحصل بعد.

ويحلّ الاشكال بأن هذا وعد من الله وهو صدق وحق، وهو واقع الحصول وإن تأخر وقته فهو بقوة الحاصل، ولذلك جاء تأكيده بهذا الاعتبار، وقد تكررت

(١٢) البيان في غريب اعراب القرآن: ٢/ ٢٥٠.

(١٣) ينظر، الموسوعة الاسلامية المعاصرة، موقع اسلامنا الالكتروني.

كلمة الرب في قوله: (ما ودعك ربُّك) وقوله: (ولسوف يعطيك ربك) ونلحظ انها جاءت في موقفين: الأول في مجال نصرته وشد أزره وتثبيت قلبه أمام افتراء المشركين، والآخر في مجال الوعد والبشارة وفيض الخيرات.

وفي كلا الموضعين توحي هذه الكلمة بمعانٍ عظيمة تجلّ عن الوصف والتحديد ولها من تأنيس نفس الرسول وبعث الطمأنينة فيها ما لا مطلب وراءه لكل ذي مطلب في مجالي الخوف والرجاء، لأن كلمة: (رب) وإضافتها الى الرسول عليه الصلاة والسلام تُشعر بأن الله سبحانه هو الذي تولى تربيته، واعداده لأمر عظيم هو هذه الرسالة، ومحال أن يرى الانسان من يقوم بتربيته ورعايته والسهر على مصالحه وهو لا يرمي من وراء ذلك إلى هدف وغاية فكيف بمن صنع هذا الوجود وأسمى من فيه وهو الانسان الذي جرت عادة العاقل منه على أن تكون لأعماله غاية وهدف.

ولذلك تولى الله رعاية نبيه رعاية شاملة دائمة، وكما تدل عليه الاعراف البشرية الحكمية من الوفاء والالتزام في هذا الميدان، فما بالك برب الكائنات له المثل الاعلى جل جلاله، على إنه يجوز لنا أن نقول إن ذلك معنى عظيم؛ توجيهي تربوي كان موجها بطريقة عملية للرسول عليه الصلاة والسلام ليطبقه في مجال الحياة العملية والتشريعية وليكون درسا للمسلمين اقتداءً برسولهم فهو تشريع قرآني كلهم ملزمون بتطبيقه.

وعليه فإن ما تقدم لا بد أن يكون اعلانا بالحماية الإلهية للرسول ﷺ وتكذيبا لما ادعته عليه قريش من إن ربّهُ تركه وأبغضه، وهو -أيضا -اعلانا بالوفاء الإلهي لمن يكون على النهج المستقيم حماية وامنا ورعاية، وفي إضافتها الى كاف الخطاب المقصود به النبي عليه الصلاة والسلام ما يوحي بالتخصيص ويشعر بالمبالغة في قوة المعنى المراد اثباته، اما حين وعده بالعطاء فذلك هو العطاء الصادر عن المربي المالك لكل شيء الخبير بمن يستحق وما يستحق.

فإذا نظرنا إلى جزالة هذا العطاء، وقسنا ذلك بمقاييس اللغة يمكن أن

نستنتج إن المولى استعمل في هذا الوعد الفعل المتعدي إلى مفعولين، فأثبت أحد المفعولين وحذف الآخر وهذا في مفهوم اللغويين -أي حذف المفعول -دال على العموم حتى تذهب النفس فيه كل مذهب ممكن وحتى يتصور فيه كل عطاء ولذلك يمكن أن يدخل فيه كل ما اعطى الرسول، وما سيعطي مما لم يتحقق بعد ولم تصل مدارك البشر إلى ادراكه.

على انه لا بد من القول إن هذه المدلولات اللغوية وما ترشد إليه أو توحي به من عموم غير محدد هو من باب التقريب لأذهان البشر طبقا لمقاييس الفهم عندهم، أما عند الله لرسوله فذلك أبعد وأعظم.

ويكفي تدليلا على ذلك أن يكون في مفهومنا نحن البشر غير محدود بحد كما أعانت عليه أساليب اللغة، وفي ذلك اشارة إلى المعنى الذي ذُكر للدلالة على عظيم العطاء الذي سوف يأتي ذكره في المبحث الثاني إن شاء الله.

المبحث الثاني:

بلاغة الاستفهام:

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

الاستفهام: مصدر استفهمت، أي طلبت الفهم، ((وأفْهَمَهُ الأمْرَ وفَهَّمَهُ إيَّاهُ: جعله يَفْهَمُهُ، واسْتَفْهَمَهُ: سألهُ أن يُفَهِّمُهُ، وقد اسْتَفْهَمَنِي الشيءَ فأَفْهَمْتُهُ وَفَهَّمْتُهُ وَفَهَّمْتُهُ تَفهيماً))[١٤]. و(استفهمه) سَأَلَهُ أَن يفهمهُ وَيُقَال استفهم من فلَان عَن الْأَمر طلب مِنْهُ أَن يكْشف عَنهُ (الْفَهم) حسن تصور الْمَعْنى وجودة استعداد الذِّهْن للاستنباط[١٥]، والاستفهام -اصطلاحاً- طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، بإحدى أدوات الاستفهام، وأسلوب الاستفهام هو أحد الأنواع الخمسة للإنشاء الطلبي: الأمر، والنهي، والتمني، والنداء فضلاً عن الاستفهام، والاستفهام نوعان: حقيقي يتوخى به صاحبه معرفة

(١٤) لسان العرب، ابن منظور، تصحيح أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ١، ١٩٩٦.

(١٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار)، دار الدعوة، بيروت: ٢/ ٧٠٤.

ما يجهله، أو مجازي، يكون السائل عالماً فيه بما يسأل عنه، لكنه يقصد فيه معنى من المعاني المجازية التي يفهمها المتلقي من السياق اللغوي عند تأمل النص.

يلحظ القارئ في قوله هنا إن همزة الاستفهام الداخلة على النفي ليست على حقيقتها، لأن الاستفهام طلب الفهم لشيء مجهول، والمطلوب في الآية ليس مجهولا، إذ إن هذا غير ممكن في جانب الله تعالى، وعليه تكون الهمزة هنا للاستفهام بمعنى الانكار، فقد دخلت على أداة نفي للفعل المضارع (لم)، فالإنكار الذي هو بمعنى النفي دخل على أداة نفي فنفاها، فكان على تقرير وإثبات مدخول (لم) وهو: يجدك لأن القاعدة تقول: نفي النفي إثبات ولذلك كان الاستفهام تقريراً لما دخلت عليه (لم) وهذا هو المراد بالإنكار والتقرير في هذا الاستفهام، أي انكار للنفي وتقرير بما بعده، ويساعد على هذا التخريج ويعضده قولهم: إن (لم) حرف نفي وجزم وقلب، بمعنى أنها تقلب الفعل المضارع إلى دلالة المضي وهو ما يفهم منه الحصول والتقرير في الماضي في حالة تغيير معنى (لم) الدال على النفي ونفيه بنافٍ آخر كالإنكار هنا فيكون المعنى على التقرير والثبوت، وذلك إنما يكون في المضي.

وكذلك كان الاستفهام مستعملا في مجازه، وليس في حقيقته، لأن حقيقته اللغوية: طلب الفهم، كما عرفنا -وليس مرادا هنا.

فصلت هذه الآية (ألم يجدك) عن سابقتها بمعنى أنها لم تعطف عليها -لأنها بمنزلة بدل البعض من الكل حيث منّ الله تعالى على نبيه بما أنعم عليه في قوله: (ما ودعك) الآيات، ووعده وعدا محققا في حكم الثابت فكأنه في حكم الحاصل لأن وعد الله لا يتخلف وذلك في قوله: (ولسوف يعطيك) الآية فكان: (ألم يجدك يتيما)، بمنزلة بعض تلك النعم، فهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴾[سورة الشعراء: ١٣٣] بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة الشعراء: ١٣٢] لأن الانعام والبنين وما بعده من جملة ما يعلمون.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ الآية، فإنها تدل على انعام الله نعمةً في

ضمن ما أنعم الله به على نبيه، ولشدة اتصال البدل بالمبدل منه لأمكن عطفه عليه فاصبحا متصلين كالشيء الواحد.

ويمكن أن يعتبر الفصل فيه على طريق الاستئناف وذلك بأن يكون جوابا لسؤال مقدر اقتضاه الكلام السابق على حد قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[سورة يوسف: ٥٣] ففصل (إن النفس) لأنها جواب سؤال مقدّر، مفاده: لماذا لا أبرئ، نفسي؟. وحيث كان سؤالا، وفيه تردد اقتضى التأكيد، وما معناه هنا أكد على سبيل التقرير كما سبق شرحه، وعطفت جملتا: (ووجدك ضالا)، (ووجدك عائلا) لوجود باعث الوصل وهو اتفاق الجمل في الخبرية والاثبات لأن العطف على المقرر به وهو مدخول (لم)، ولذلك عطف بصيغة الماضي الدال على الوقوع.

وقوله (يجـــــدك) بمعنى: يعلمك فهي تنصب مفعولين، ومفعوليها هنا: (الكاف) و(يتيمـــاً) وإذا كانت بمعنى يصادفك فلابد من اعتبار (يتما): حال وهو مجاز عن تعلق علمه به، ومعنى المصادفة الملاقاة، أي ما لم يكن في علمك، وذلك محال على الله تعالى، وهو مجاز كذلك إذا كانت بمعنى: علم، لأن وجده بمعنى: أصابه على صفته، ويلزم منه العلم، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم، وكذلك الشأن في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا ﴾ من حيث المعنى والاعراب.

أما قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾[١٦]، فإن الضلال: الحيرة والعدول عن الحق والطريق، يقال: ضل عن الحق كما يقال: ضل عن الطريق ومنه قوله تعالى هذا.

قال الراغب الاصفهاني[١٧]: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا.. وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدا كان أو سهوا، قليلا كان أو كثيرا صح أن يستعمـــل لفظ الضلال فيمن يكون منه خطأ ما ولذلك نسب الضلال

(١٦) تأويل مشكل القرآن: ٤٥٧.
(١٧) المفردات: ٢٩٧و٢٩٨.

إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بين الضلالين بون يبعد ألا ترى أنه قال في النبي ﷺ: ووجدك ضالاً فهدى، أي غير مهتد لما سبق اليك في النبوة، وهو ما فسره الزمخشري بقوله[18]: ((معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع كقوله ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

وروي إنه عليه الصلاة والسلام ضل في بعض شعاب مكة، أو في رحلته إلى الشام مع عمه ابي طالب،

على هذا المعنى الاخير يكون الضلال بمعناه الحقيقي، اما إذا كان بمعنى الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع، أو عن علم الحكمة فإنه يكون على سبيل الإستعارة، مستعار في العدول عن الطريق، من ضل في طريقه إذا سلك طريقا غير موصله كما جاء ذلك في الشهاب[19]، وفيه نكتة بلاغية بديعة وهي: المطابقة بين الضلال والهداية، وكذلك: (عائلاً فأغنى) -وعائلاً: فقيرا- ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ ﴾ [سورة التوبة: ٢٨] أي فقراً، قال الراغب[20] (ووجدك عائلًا فأغنى) أي أزال عنك فقر النفس وجعل الغنى الأكبر المعني بقوله ﷺ: الغنى غنى النفس.

وقد قرئت عيلاً: بمعنى: فقيرا مثل قوله تعالى (سيحات ثيبات وابكاراً في قوله: سائحات).

جاءت هذه الآيات بمثابة التدليل على وعد الله لرسوله في قوله: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ ﴾الآيات، وانه وعد حق لا مراء فيه لأن ذلك صادر ممن أنعم عليك قبل فقد كنت يتيما فآواك ووفر لك من الحماية ما جعلك في مأمن عز على غيرك مناً له حيث كان اليتيم في قريش فريسة الأقوياء.

وقد كنت ضالاً في شعاب مكة أو عن علم الحكمة والشرائع وما طريقه السمع فأوحى اليك بالقرآن وضمنه شرائع الانبياء السابقين، وهدى بك الضالين.

وقوله تعالى ووجدك فقيرا فأعطاك يوحي بأن غنى النفس قمة كل غنى او فأغناك بما أفاء عليك من الغنائم وعلى

(١٨) الكشاف: ٤/ ٢٦٤.

(١٩) الكشاف: ٨/ ٣٧٢.

(٢٠) المفردات: ٣٥٤.

امتك من خيرات الدنيا.

واما قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فإن الفاء الداخلة على أما تسمى فاء الفصيحة، ومعناها انها أبانت وأظهرت وأفصحت عن جواب شرط مقدر مأخوذ عن الكلام السابق يمكن أن يقال فيه: إذا كنت يتيما فأواك الله، وضالاً فهداك الله، وعائلاً فأغناك الله، إذا كان الأمر كذلك، فأما اليتيم... الخ.

و(أمـــــا) حرف شرط وتفصيل وتوكيد[٢١].

أما كونها حرف شرط فلوقوع الفاء في جوابها لزوما وعليه قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[سورة البقرة: ٢٥].

وتكون للتفصيل غالبا وليس ذلك بلازم لها، فهي في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾الآية، ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾الآية، ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [سورة الكهف: ٧٨، ٧٩، ٨١] الآية.

وقد تأتي لغير التفصيل مثل: أما محمد فذاهب، وتكون للتوكيد كما وضح ذلك الزمخشري، فقال[٢٢]: و(أما) حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجاب عليه بالفاء، وفائدته في الكلام فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه من عزيمة؟. قلت: أما زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب.

قال ابن هشام[٢٣]: وأما التوكيد فقل ذكره، ولم أر من أحكم شرحه غير الزمخشري، ولعل هذا المعنى (أما) من أبرز معانيها، وأدخلها في باب البلاغة، وهو الأقوى لهذا المقام مناسبة في التأكيد على المعنى المراد من رعاية اليتيم وحفظه وتربيته على أحسن وجه على عكس ما كانت تمارسه الجاهلية في أكل ماله وقهره.

وكذلك الشأن في تأكيد المعنى بالنسبة

(٢١) المغني: ٥٦.

(٢٢) الكشاف: ٤/ ٢٦٦.

(٢٣) المغني: ٥٦.

للسائل، والتحديث بنعمة الله و(اليتيم) مفعول لـ (تقهر) مقدم عليه وتقهر مجزوم بلا الناهية، والمراد النهي عن ظلم اليتيم وغلبته وأخذ ماله.

وقد قرئ أيضا (فلا تكهر) ومعناه لا تعبس في وجهه، قال الفراء[٢٤]: وفي مصحف عبد الله فلا تكهر وسمعتها من اعرابي من بني اسد قرأها علي.

واذا كان العبوس في وجه اليتيم منهيا عنه، فإن ظلمه وأخذ ماله أغلظ في النهي عنه، وهو معنى كناني يراد منه البشاشة في وجه اليتيم، واللطف به، ولين الجانب له وأعرب: (وأما السائل)، الآية كسابقتها، وأما بنعمة ربك الآية، الجار والمجرور متعلق بالفعل: (فحدث).

والفاء في: (فلا تقهر)، و(فلا تنهر)، و(فحدث) في جواب أما وقد وردت هذه المعاني على سبيل التأكيد الذي تفيده أما المصدّر بها الآية، كما سبق شرحها، وما يفيده تقديم المفعول به، والجار والمجرور في قصر وتخصيص.

واليتيم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قبل امه[٢٥]، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾، وهو المراد بالسائل: المستجدي؟. أو طالب العلم؟. والأحسن أطلاقه ليعم كل سائل؛ مستجديا كان أو طالب علم، أو غير ذلك.

وقهر السائل: زجره والتحديث بنعمة الله شكرها واشاعتها، وبخاصة إذ علم سلامة نفسه من الرياء وهذه الآيات الثلاث تشعر بأنها في مقابلة ما قبلها فكان محسن بديعي وهو: اللف والنشر المشوش، حيث جعل: (فأما اليتيم) في مقابلة: (ألم يجدك يتيما، وجعل: (وأما السائل) في مقابلة (ووجدك عائلا فأغنى) وجعل: (وأما بنعمة ربك فحدث) في مقابلة: (ووجدك ضالاً فهدى).

وهناك مُحسِّن بديعي آخر هو الالتزام، وهو: أن يلتزم الناثر في نثره والشاعر في شعره حرفا: أو حرفين فصاعدا قبل حرف الروي... مشروطا بعدم الكلفة[٢٦].

وقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز:

(٢٤) معاني القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٢٥) المفردات: ٥٥٠.

(٢٦) بديع القرآن: ٢٢٦.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ما الغرض إذن في سوق هذه الآيات الثلاث تلو سابقاتها؟. من الممكن أن يكون هذا درسا عمليا لرسول الله ﷺ يريد الله به ان يربي به رسوله وأمته من بعده، لأن المطلوب من الرسول مطلوب من المسلمين كذلك ما عدا شيئا خص به عليه الصلاة والسلام وذلك بأن وجه الرسول وذكره بما أنعم عليه من رعايته وإيوائه اليه بعد أن ذاق اليتم وهو أنه وبما أنعم عليه الوحي فهداه، وهدى به، وبما أفاء عليه من القناعة وغنى النفس وعلى امته من الغنائم والخيرات.

إذا كان الامر كذلك، وقد أنعم الله بهذه النعم عليك فاجعل الله قدوتك فتعطف على اليتيم وأوه وتلطف به، وارحم السائل ولا تزجره واشكر الله على ما من به عليك من هذه الهداية الكاملة الشاملة وقد وفى عليه الصلاة والسلام بما طلب منه، وعلمنا هذا الدرس قولا عملا، فروى عنه إنه قال ﷺ: خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه.

وكان النهي عن ظلم اليتيم وأخذ ماله، أو العبوس في وجهه إشارة الى أن ذلك لا يقتضي منع نهره وزجره للتربية بما يحقق مصلحته ولذلك جاء في جانب اليتيم.

وفي قوله: فلا تقهر، اشعارا وإيحاء بأن ما يحقق التربية الصالحة من ذلك مما يظن أنه غير جائز في ظاهر الامر لا شيء فيه وغير منهي عنه بل أن ذلك مما بعد من مصلحة اليتيم مثل ما يزجر الواحد ولده وهو أعطف الناس عليه، رعاية لمصلحته وتربية له، وبخاصة إذا علمنا ان اليتيم في مرحلة يتمه يحتاج الى هذا النوع من الرعاية.

وجاء في جانب السائل: (فلا تنهر) لأن جانب السيطرة عليه والتحكم فيه غير وارد كما في اليتيم، وسواء أكان السائل مستجديا، أم سائل علم، أم جاه، أم غير ذلك فان الأدب يقتضي منا -كما علمنا القرآن -أن نجيبه لحاجته أو نقول له الكلمة الطيبة مراعاة لموقفه الضعيف، وانكار خاطره لحاجته التي احتاج فيها إلى عون وعجز عن انجازها بنفسه

وذلك أدب قرآني رفيع يؤدب الله به نبيه والمسلمين وصدقﷺ إذ يقول (أدبني ربي فأحسن تأديبي) ومن ذلك ما وصى به رسول من لين الجانب والكلمة الطيبة، والمعاملة بالحسنى والبعد عن الفظاظة وغلظة القلب والقول، وهو ما مدح الله به رسوله عليه الصلاة والسلام الذي كان القمة في ذلك الأدب العالي حيث قال ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩] على انه ليس كل سائل يمكن ان يعامل بهذا، بل هناك الجشع، وهناك المتعنت وهناك العابث بمصالح الناس، فمن المصلحة اذن ان يعامل طبقا لمقاييس حكيمة تعود عليه هو نفسه وعلى المجتمع بالنفع والخير، ولسنا نعوز ذلك في شريعة الله.

إن الله -عز وجل -يذكّر رسوله الكريم بأحداث مضت وانقضت، إلا أنها مؤثرة جداً في حياته، وهذا ما يسميه بعض النقاد بالتذكر واستدعاء الماضي، فاليتم والضلال والعيلة أمور مرت بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، والرسول الكريم يعرفها ويعيها، إلا أن استدعاءها من الماضي وإجراء مقارنة في الحاضر يبعث في نفس الرسول الكريم الرضا والبهجة والشعور بأن الله -عز وجل -لم ينسه سابقاً فكيف سيودعه أو يقلاه الآن، فيشارك الماضي مشاركة فاعلة في صنع لحظة الحاضر، والتأثير فيها، فالحاضر امتداد للماضي بكل ما فيه، فلا حاضر ولا مستقبل دون أن تكون هناك جذور راسخة تمدّ وتغذّي هذا الحاضر، والعودة إلى هذه الجذور تكون عن طريق تذكّرها واستدعائها كلما احتاج العقل البشري إليها، وخيط الوصال في هذا التذكّر هو "الذّاكرة"، فهي من لديها القدرة على إحياء حالة شعورية مضت وانقضت، مع العلم والتحقق أنها جزء من الماضي، على حين أن التذكّر هو استفزاز الذاكرة من أجل استحضار مخزونها، وفي هذا التحول من الماضي إلى الحاضر تأكيد على تواصل الجو النفسي والائتلاف الدلالي في نص السورة الكريمة [٢٧].

(٢٧) سورة الضحى، دراسة في الترابط الشكلي والائتلاف الدلالي، الدكتورة عائشة الزراع

ان مهمة السورة الكريمة: هي توكيد استمرار فاعلية الاتصال بين المرسل/ الحق المطلق جل جلاله والمرسل اليه/ الرسول الكريمﷺ واجراءات التوكيد هي: ثنائية القسم في قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وثنائية النفي في قوله: ما ودعك ربك وما قلى، والحاق النفي بمثبتين: مثبت يتسم بالتهوين/ وآلآنية في قوله: وللآخرة خير لك من الأولى.. ومثبت يتسم بالتبشير في قوله: ولسوف يعطيك ربك فترضى، والتذكير عبر استدعاء وجيز ماضي السيرة النبوية في الثنائيات: يتيما/ فأوى وضالا/ فهدى وعائلا/ فأغني، والتبليغ من خلال النسق الثلاثي الثاني: اليتيم/ لا تقهر والسائل/ لا تنهر ونعمة ربك/ فحدث[٢٨].

ولا بدَّ من التأكيد على إن مرامي تلك المعاني من الدقة بحيث لا يتوصل الادراك الى معانيها من الوهلة الاولى، فإن عمق معانيها، وما ترمي إليه من معنى عظيم يوحي بالرجوع دائما الى الله في كل شيء وانه الاولى بأن يسأل لأنه المعطي والمانع والمتصرف في كل شيء، تلك الكلمات التي كان يرد بها السائل المستجدي حين لا يوجد ما يعطي، أولا يراد له العطاء- وهي: يا حنان، يا رزاق، وغيرهما وهي تفيض أدبا وعطفا وهي مصداق لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ أدب قرآني كان السلف الصالح يطبقونه، وما أجمله في أدب ندعو للحفاظ عليه باعتباره من تعاليم القرآن، وباعتباره تقليدا اجتماعيا أصيلا إذ كل مجتمع يدعو ويحافظ على تقاليده، بل ويعتز بها.

نتائج البحث:

١. لقد تضافرت الاساليب البلاغية في السورة المباركة في توكيد متانة العلاقة بين الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه. وقد تبين ذلك في حذف المفعول به في قوله: (وما قلى) فحذف المفعول به وان كان دل عليه ماقبله، أو جاء

العطوي، شبكة الانترنيت، نقلا عن شعرية التذكر عند مليكة العاصمي، أنس أمين: مجلة صدانا الثقافية، ٦ يوليو، ٢٠١٠م: ١.

(٢٨) سجو في حضرة الضحى قراءة هيكلية في سورة الضحى، مقداد مسعود، مؤسسة النور للثقافة والاعلام الالكترونية.

مراعاة للفاصلة، فهو من جانب اخر تعظيم لشخصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام , ثم بين أن البغض ليس من الصفات الالهية.

٢. تضمن القسم معنى التأكيد (والضحى) ردا على امنيات قريش وأقاويلهم من أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد ودعه ربه، وجاء القسم بالضحى لفضيلته كونه وقت سرور وبداية يوم جديد فضلا عن معاني اخرى لوروده في آيات اخر.

٣. كما تجلت جمالية اللغة في مجازها الاستعاري، ففي (ماودعك) استعارة تبعية استعير منها التوديع لغرض الترك ثم اشتق منه (ودع) بمعنى ترك منفيا فيهما للدلالة على رعاية الله سبحانه لرسوله الكريم صلواته وسلامه عليه، ومن ثم عطف جملتين مثبتتين على معنى المنفيتين (ولسوف يعطيك ربك فترضى).

٤. وللتكرار -في السورة الكريمة- دلالات ومعاني تتلخص في تولي الله سبحانه رعاية رسوله الكريم صلواته وسلامه عليه، فقد تكررت كلمة (الرب): (ماودعك ربك)، (ولسوف يعطيك ربك) فالرعاية هنا حفظ وتربية واعداد لأمر عظيم هو الرسالة السماوية محفوفة بحماية الهية.

٥. أما الاستفهام الذي ورد في السورة الكريمة ليس استفهاما حقيقيا، وانما استفهام انكاري (ألم يجدك...) وهذا الاستفهام على سبيل التقرير والثبوت لأنعم الله على رسوله الكريم -صلوات الله وسلامه عليه -، ولذلك جاء بصيغة الماضي.

٦. أفادت (اما) افادة بلاغية فضلا عن كونها شرطية تفصيلية توكيدية، فهي في باب البلاغة أقوى في مقام رعاية اليتيم وحفظه في أحسن حال، وكذلك الحال بالنسبة للسائل.

٧. كما افادت السورة الكريمة من التذكر واستدعاء الماضي، فاليتم والضلالة والعيلة امور كان الرسول الكريم -صلواته وسلامه عليه -ضحيتها، فهو يعرفها ويعيها، الا ان استدعاءها ومقارنتها بالحاضر لغرض التواصل

النفسي وصولا الى معنى عظيم يوحي بالرجوع -دائما -الى الله في كل شيء، وانه سبحانه الاولى بأن يسأل لأنه المعطي والمانع والمتصرف في كل شيء.

أهم مصادر البحث ومراجعه:

القرآن الكريم.

١- بديع القرآن، إبن ابي الأصبع المصري ت ٦٦٨هـ، مكتبة نهضة مصر.

٢- البيان في غريب اعراب القرآن، أبو بكر بن الانباري ت ٥٧٧هـ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

٣- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦هـ، دار التراث ط٢ مصر.

٤- تفسير أبي السعود، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد ابن العماري ت ٩٨٢هـ، مطبعة صبيح.

٥- تلخيص البيان في مجازات القرآن، أبو الحسن محمّد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن الإمام موسى الكاظم ع، الشريف الرضي ت ٤٠٦هـ، عيسى الحلبي، مصر.

٦- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ت ١٠٦٩هـ، المكتبة الاسلامية، محمد أزدمير، تركيا.

٧- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الازهري، المعروف بالجمل ت ١٢٠٤ هـ، منشورات الجمل، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٨- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.